الهجرة إلى المدينة

لقد وُجدت في صدر الإسلام هجرتان عظيمتان، إحداهن إلى الحبشة والأخرى إلى المدينة المنورة.. ولقد كانت الحبشة دار أمان ظرفية، بينما كانت المدينة دار مشروع واستقرار، لذلك كان التركيز عليها.

والملاحظ أن المسلمين لم يهاجروا إلى المدينة إلا بعد أن وجد من أهلها من ينصرهم ويؤمّن وجودهم، وهم الأنصار، تماماً مثلما أنهم لم يهاجروا إلى الحبشة إلا بعد أن أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد. لذلك فإن المسلمين دخلوا المدن برجالها... والذي يمكن أن نضع عليه الإصبع بدقة هو أن هجرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة المنورة لم تكن بذات الدافع الذي خرج به الكثير من الصحابة، وهو الهروب من الأذى، بل كان نتيجة التوصل إلى حقيقة هامة وهي استعداد المدينة لأن تكون مركزاً جديداً للدعوة.

والدليل على أن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت لمتابعة مشروع وليس ابتعاداً عن الأذى، أمران:

ـ أولاهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان يفكر في الابتعاد عن الأذى لهاجر إلى الحبشة قبل ذلك مثلما هاجر الصحابة الهجرتين.

ـ والثاني، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان آخر من هاجر من

مكة إلى المدينة، وهو ما يعطي صورة القائد أو المستثمر الذي ينقل كل أدوات استثماره إلى المكان الجديد الذي سيتخذه مركزاً جديداً لعمله، وبعدها ينتقل هو، ولو كان فاراً اتقاء لظلم مشركي مكة لَبَكَّر.

إن المقرر كان هو أن تقوم دولة الإسلام في مكة أو ما جاورها، ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر إلى الحبشة لابتعد عن المدينة، ولخسر مكة، ولما استطاع لأسباب عدة إقامة دولته في الحبشة.. وبذلك تكون الدعوة قد خسرت مجالها المكاني، وخسرت الكثير.. لذلك كان الحفاظ على هذا المجال رغم الشدائد أمراً واجباً أيما وجوب.

لقد سمح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمضطَهدين المسلمين بالهجرة إلى الحبشة رحمة بهم رغم أنه كان يعلم أن دور هؤلاء في المشروع الذي يبقيه في مكة قد توقف.. لقد حاول رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إقامة مركز ومنطلق دولة الإسلام في مكة، لكن ذلك لم يتأتّ، فمشى إلى الطائف يعرض نفسه، فلعلها تكون عوضه عن مكة، لكن أهل الطائف ردوه.. لذلك كان لابد من مكان آخر..

إن اختيار المكان الآخر، والانتقال بالمشروع من مكان لمكان هو اختصار للزمن نحو النصر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يستطيع أن يبقى في مكة عقوداً أخرى حتى تتهيأ، لكن ما مقامه وبقاؤه في مكة للدعوة، وقريباً منه مجال مكاني قد تهيأ للدولة.. وهو المدينة؟!!

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم، آنذاك يختار بين مكان ستظله راية الإسلام، وآخر سيبقى تحت راية الشرك والجاهلية، بل كان يختار البداية والمنطلق، وهو كان يعلم أنه لا يجوز تأخير الجاهز والمتهيء انتظاراً لما لم يتهيأ، لأن المدينة لن تكون سوى المنطلق وأن مكة ستكون

بعدها فصاً آخر في عقد الدولة وسمطها..

إن الهجرة إلى المدينة تعد نصراً لما للكلمة من معنى حقيقي، فقد كان وصول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة يعني مرحلة جديدة في عمر الدين الجديد، وهي مرحلة تأسيس أركان الدولة، وكان ذلك يقتضي منه إلقاء مشروع كبير على أهل المدينة من الأوس والخزرج، ينسون فيه عداواتهم، ويلبسون له لبوس الجد.. والمشاريع الكبيرة التي تجند مجموع الشعب لها، تعد من ناحية سياسية تجاوزاً لما قد يخلقه الفراغ من المشاكل الداخلية. ولعل ذلك كان ما دعا الفراعنة إلى التفكير في بناء الأهرام، إذ أنهم كانوا يعرفون أن استفراغ الجهد الشعبي في مشروع كهذا لن يترك لأي شخص كان المجال للتفكير في قلاقل ومشاكل سياسية أو غيرها.. رغم أن الأهرام بالمعنى الحضاري ليست صرحاً حضارياً، فقد قامت على امتهان الإنسان، واعتبار البناء أولى من البشر، وقد مات الآلاف في تشييدها.

أما الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان في العقبة يحسس المبايعين أن الأمر خطير يستدعي منهم جهداً كبيراً وتصحية فذة، وهذا الإحساس هو الذي قضى على العداوات والثارات بين الأوس والخزرج، وقد كان من الممكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أن يوحدهم عبر ميثاق أو معاهدة، لكن ذلك ليس من فعْل الإسلام، لأن من شأن العقيدة أن توحد توحيداً حقيقياً لا صورياً ظرفياً..

وكان فتح باب عدو آخر خطير للطرفين من شأنه أن يوحدهما، لقد توحد الإحساس بالمصير المشترك بين الأوس والخزرج ليلة العقبة لإحساسهم بخطورة المسؤولية، إذ ليلتها قال العباس (وكان لايزال آنذاك على دين قومه):

«يا معشر الخزرج ـ وكان العرب يسمون الأنصار خزرجاً خزرجها وأوسها كليهما ـ إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِموهُ وخاذِلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن دعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده»[٢٩].

كما أن ما يدل على أن الأمر الملقى على عواتق الأوس والخزرج كان عظيماً أنهم لما قاموا يبايعون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قام أسعد بن زرارة في آخر لحظة يذكّر القوم ويضعهم في الصورة الحقيقية لما هم مقدمون عليه، وخطورة ذلك، فأخذ بيد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال كما في رواية جابر قال: فقمنا نبايعه، فأخذ بيده أسعد بن زرارة ـ وهو أصغر السبعين ـ فقال رويدا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله[٣٠].

أما عبادة بن نضلة فقال:

«هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن

٢٩ ـ الرحيق المختوم للمباركفوري ص ١٦٥، ١٦٦.

٣٠ ـ رواه الإمام من حديث جابر

فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفّينا بذلك؟ قال الجنة. قالوا: ابسط يدك. فبسط يده فبايعوه.

إن الإحساس بخطورة هذا الأمر هو الذي أعطى الوحدة بين الأنصار بُعدها الآخر، وبعض المتكلمين الحاذقين من المسلمين أو أعضاء الجماعات سيقوم هنا خطيباً ليفند رأيي هذا، وليبين أن العقيدة هي التي جمعت بين الأوس والخزرج، وليس وحدة المصير، وهذا كلام جميل، غير أننا نتساءل:

لماذا لم تتوحد الجماعات الإسلامية اليوم وهي على عقيدة واحدة؟

إن العقيدة عقدة وإحساس بوحدة في كل شيء ابتداء بالله الواحد المعبود إلى الرسول الواحد والقائد أو القدوة، إلى الكتاب الواحد إلى المصير الواحد، وكلما كان الإحساس بهذه الوحدة كبيراً واجتمعت عناصرها كلها وتحققت كلما كانت أقوى.

إن البشر كلهم يجمعهم رب واحد هو الخالق.. وأب واحد وأم واحدة، وهذا يجعلهم إخوة، لكن ذلك لا يصلح لأن يعطي الوحدة كمالها، فإذا أضيف إلى ذلك الألوهية ووحدة المعبود (الله الواحد) فإن ذلك يقرب أكثر، لذلك كان أهل الكتاب أقرب للمسلمين بالمنظور الإسلامي من غيرهم، فإذا أضيف إلى ذلك وحدة الرسول كان الأمر أبلغ، والمسلم أقرب للمسلم من المسيحي الموحد رغم أن المسلم يجتمع مع المسيحي الموحد في المعبود الواحد، وللجوار في الإسلام حقوقه كما أن لقرابة الدم حقوقها، والشقيق المسلم أقرب من مسلم ليس شقيقاً،

كما أن الجوار وحدة مصير، وحقوق الذي يقتسم معك المصير أو المكان أكبر من حقوق مسلم بعيد المكان، لذلك كان «الجار أحق بصقبه» في الشفعة، ولذلك أيضاً «كاد الجار أن يرث جاره». فكلما زاد عنصر تقريب كلما ازدادت الوحدة تماسكاً وشدة، وقد اجتمع عند الأوس والخزرج ما يوثق رابطتهم أكثر، ومن ذلك العقيدة والمصير المشترك، وكانت هذه الوحدة الأساس القوي الذي سيقوم عليه بناء الإسلام في المدينة.

إن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه لم يكن ليرضى عن المسلم الذي قتل أخاه زيداً، وكان يقول له:

لن أرضى عنك حتى ترضى الأرض عن الدم، فكان الآخر يقول: وهل ينقصني ذلك من حقوقي شيئاً يا أمير المؤمنين؟ فيبين له عمر أنه سيوفى حقه دون نقصان، فيقول الرجل إنه لا يأس على الحب بعد هذا إلى النساء..

وليس من السهولة نسيان ثارات حرب دامت عقودا، لدرجة أن الأوس والخزرج حدثت بينهم حتى بعد الهجرة تشنجات تداعوا فيها إلى السلاح وإلى إحياء الحرب القديمة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يغضب لذلك ويقول: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟».

إن العقيدة توحد، لكنها قد تحتاج إلى زمن تندمل فيه كل الجروح، لذلك كان لا بد من رباط أوّلي يربط بين الأوس والخزرج ريثما تذهب شحنات القلوب ويذهب أثر الجراح القديمة، وكان ذلك هو المشروع الذي تحملوه معاً.

إن الإحساس بوحدة المصير يكون أبلغ حين يكون خطر العدو سيداهم الجميع في وقت واحد، أما إذا كان العدو سيأكل ثوراً بعد ثور، فإن الثور الأسود قد لا يتحرك حين يؤكل الثور الأبيض، حتى وإن كان من فصيلته وكان عدوهما واحد وهو الأسد، لذلك يلاحظ أن الجماعات الإسلامية اليوم لا تحركها وحدة المصير، لكون كل جماعة قد تتعرض للضغط في غير الوقت الذي تتعرض فيه الأخرى، أو لكون المكان ليس واحداً، ووحدة المصير تتطلب وحدة زمانية ومكانية لتكون أبلغ وأقوى، وتعدد المكان في الواقع المعاصر عند الجماعات الإسلامية للأسف، ليس واقعاً جغرافياً فقط، بل هو واقع استطاع أن يلقي بظلاله حتى على الجانب النفسي، وأن يبلور ويفرز معطى دينياً جديداً.. محدوداً بحدود المواطنة والجغرافيا.. وكثيراً ما يتعرض المسلمون في بلد ما للإبادة أو للظلم فلا يتحرك غيرهم في بلد آخر لنصرتهم نزولاً واستجابة لواقع الحدود وتباين المكان.. هذا إذا استثنينا تداعي بعض الشباب المسلم إلى أفغانستان لمحاربة الروس وإلى نصرة مسلمي البوسنة والشيشان فيما تعرضوا له من الأذى الشديد.

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقيم بين الأوس والخزرج ميثاقاً أو معاهدة لأن المعاهدة قد تخرق، فهل يمكن بناء صرح دين عظيم على معطى هش قد يخرق في أي لحظة؟.

إن المعاهدة تجمع العناصر المختلفة في رباط واحد، لكن يبقى لكل عنصر تميزه، إنها شبيهة بحزمة الحطب، ومن شأن معاهدة بهذا المعنى أنْ تجمع الأوس والخزرج جمعا صورياً يبقى فيه الضغط على الخيط الرابط الملتف حول الحزمة، وكلما زاد الضغط آذن الأمر بانفراط العقد الرابط:

أما الوحدة بالمعنى الإسلامي فإنها شبيهة بجمع أجزاء من الطين الطري إلى بعضها، وحينذاك يندمج كل جزء من الطين في الآخر ليصير الكل كتلة واحدة تبقى على وحدتها حتى لو أزيل وفُكَّ الرباط الذي يلتف حولها.. إنها وحدة الامتزاج، ليصير الجميع كما وصفهم الحديث «جسداً واحداً» لذلك فإن المعوَّل على الطينة وهي هنا القلوب المعجونة بماء العقيدة، غير أن الأمر يحتاج في مبدئه إلى خيط رابط أو شيء ضاغط يقرِّب الأجزاء من بعضها لتتآلف، وهذا الرباط ظرفي لأنه لن يكون هناك حاجة له بعد زمن، حين تصير القطع كتلة واحدة، وحتى إذا حدثت بعد ذلك مناوشات فإنها تكون داخلية في إطار الكتلة، بعكس المناوشات التي كانت قبل الوحدة فإنها كانت بين عناصر متباينة ومتواجهة:

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدرك أن الوحدة الجديدة بين الأوس والخزرج طرية العود، تحتاج إلى حذر وتعهّد، كما يدرك أن مجال المدينة ملغّم بثارات قديمة، لذلك كان يحتاط حتى في أدق التفاصيل، ومن ذلك بناء المسجد، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أن الانحياز إلى جهة ما من بطن أو فخذ أو قبيلة معناه إغضاب الجهة الأخرى التي تنافسها، وكان بين قبائل العرب آنذاك منافسات ومنافسات، لذلك كان أمر اختيار المكان الذي يبنى فيه المسجد مشكلة أخرى، والرسول صلى الله عليه وسلم، جاء لربط الأواصر ونشر الإخاء، لا للتفريق، لذلك جفل عن الاختيار بنفسه، وأناط ذلك بالإرادة الإلهية وأن المسجد سيقام في البقعة التي تبرك فيها الناقة: «دعوها فإنها مأمورة».

جاء في كتب السيرة:

«فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء أياما، وقيل أربعة عشر يوما وأسس مسجد قباء، ثم ركب بأمر الله تعالى فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن وادي رانونا، ورغب إليه أهل تلك الدار أن ينزل عليهم، فقال: «دعوها فإنها مأمورة «فلم تزل ناقته سائرة به لا تمر بدار من دور الأنصار إلا رغبوا إليه النزول عليهم، فيقول: «دعوها مأمورة». فلما جاءت موضع مسجده اليوم بركت، ولم ينزل عنها صلى الله عليه وسلم حتى نهضت وسارت قليلا ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول، فنزل عنها صلى الله عليه وسلم، وذلك في دار بني النجار، فحمل أبو أيوب رضي الله عنه رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله»[٣١].

إن المبالغة في الاهتمام بأمر الوحدة، هو في الحقيقة اهتمام بأمر الأساس الذي سيقام عليه بناء الإسلام في المدينة، والوحدة هنا لا تقاس بمقدار تماسك أفراد كل مجموعة إسلامية (كالأوس) أو (الخزرج) بل بمقدار تماسك الجماعات فيما بينها وتحولها إلى جماعة واحدة، فهل هذا الأمر موجود اليوم في واقع الجماعات الإسلامية؟!!

إن من أكبر المصائب أن نوعاً من اليأس أصبح يلف أو لنقل يسوِّر هذا الموضوع، الذي سقط من برنامج كل الجماعات الإسلامية كونه من أكبر المستحيلات، وصار كل جهد، أو مشروع لتوحيد هذه الجماعات مجرد عمل محكوم عليه سلفاً بالفشل والموت..

والله تعالى يقول: «ولا تفرقوا فتفشلوا وتذهب ريحكم»..

إن الوحدة هنا معناها الالتقاء على مشروع واحد والذوبان فيه، لا أن

٣١ ـ الفصول ص ١١٨

تبقى كل جماعة تختط لنفسها خطاً خاصاً بعيداً عن الجماعات الأخرى.

غير أننا يجب أن نكون صرحاء لنقول أن مصيبة هذه الأمة في دعاتها ومنظريها وقادة جماعاتها، إن الكثير من الجماعات تشن حرباً كلامية شعواء على الواقع العربي والإسلامي المشتت المتفرق، الضعيف أمام العدو، غير أن على هذه الجماعات أن تعرف أن تشتتها هي أفظع من تشتت الدول، وأن واقعها أسوأ من واقع الأنظمة، لسبب وجيه وهو أنه إذا لم يتوحد الذين يحملون مشعل الدعوة والنور فكيف يتوحد غيرهم؟!! وإذا كان زعماء الجماعات الإسلامية متفرقة مصالحهم، فلماذا يلومون من له مصالح أكبر من مصالحهم وهو الأنظمة، في البقاء على واقع التشتت.؟!!

إن المشكلة مشكلة رؤوس، والعمل الإسلامي إلى اليوم تحكمه العقلية القبلية، فلكل جماعة إسلامية واقع قبلي، يحكمه شيخ، وقد تُغِير هذه الجماعات على تلك بإصداراتها وخطبها، وحتى باستعمال القوة كما يحدث كثيراً في نقاط التقاء وتصادم ساخنة.

إن هذا الواقع العربي الذي يحكمه الفرد يجب أن يسقط لصالح المؤسسة، وأن تسعى كل الجماعات إلى بناء مؤسسة رائدة متخصصة يرجع إليها الأمر عامة، شرط أن يكون في هذه المؤسسة أناس مختصون بالسياسة، وآخرون بالاقتصاد، وآخرون بالأمور الإستراتيجية، وآخرون بالفكر وغيرهم بالأدب، وبعلوم الشريعة.

إن التجربة الغربية التي لا يمكن إنكار نتائجها تستند إلى مراكز مختصة وهيئات متفرغة، كل همها التخطيط والبرمجة والدراسة، وهي التي تضع بين أيدي المسؤولين التنفيذيين ما من شأنه أن يكون منطلقات

مدروسة لمشاريعهم، وبعكس ذلك، فإن الجماعات الإسلامية كانت ولا زالت تنطلق من رسالة يحبِّرها طالب علم، ويحشد لها الآلاف دون مناقشة.

إن هذا الواقع القبلي المزري يجب أن يعرَّى، وإلا فهناك بديهية يجب أن توضح وهي أنه:

- لايحق للجماعات الإسلامية أن تطالب الأنظمة، والأمة بالوحدة كحل، وكطريق للنصر، لأنها هي ذاتها تعيش أزمة التشتت والتفرق، فهل يستقيم الظل والعود أعوج؟!!
- لا يجب على هذه الجماعات أن تغالط السنن الشرعية والكونية وتتساءل عن سبب ضعف الأمة وهوانها، لأن الإجابة موجودة وتجاهلها يعد منكراً.. والإجابة في قوله تعالى:
- «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم».
- لا يجب الاحتيال على نص شرعي، وواقع مرئي ومعيش، بتفسيرات وتعليلات لا معنى لها، يتخذها أقطاب الجماعات مبررات للاستمرار في واقع الأزمة.
- المخلوقات غير العاقلة يوحدها الخطر، وواقع وحدة المصير، والجماعات الإسلامية كانت دوماً الضحية، لكن ذاك الواقع المر لم يوحدها، فأي شيء سيوحدها، بعد أن لم يتسنَّ ذلك لا بالقرآن ولا بالخطر الداهم..؟!! سؤال مرٌّ..

ولعل المشكلة تكمن في كون رواد الجماعات الإسلامية اليوم يستندون إلى نصوص الشريعة لتبرير الفرقة تماما كما كان المسلمون الأوائل يستندون إلى النصوص لتحقيق الوحدة، ذلك لأن القرآن

حمال، ذو وجوه... فهل النصوص الشرعية تأمر بالوحدة أم بالتفرق؟ وهل مثل هذا الإختلاف التناقضي الذي يبيح التفرق بدل الوحدة اختلاف مشروع لصاحبه أجر؟

إن الاختلاف بين طرفين في فهم ماهية شيء واحد لا يعد اختلافاً فكرياً نظرياً فقط، لأن ذلك سيفرز اختلافاً في المواقع، ومن ثم في الأداء.

وفي سورة هود مثال جيد لذلك، فحين أغرق الله ابن نوح في الطوفان، وكان الله قد أمر نوحاً أن يحمل أهله معه في الفلك ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك﴾[٣٢].

استغرب نوح مما حدث، وتوجه إلى ربه قائلاً: «رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق؟» أي أنك وعدتني بنجاة أهلي، وابني من أهلي، فكيف ذلك؟!!

قال الله تعالى: ﴿إنه ليس من أهلك﴾.

لنستمع: ﴿ونادى نوح ربه فقال: رب، إن ابني من أهلي، وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين؟! قال يا نوح: إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، فلا تسألن ما ليس لك به علم، إني أعظك أن تكون من الجاهلين..﴾[٣٣].

إن نوحاً كان يرى أن ابنه من أهله، وقد قال الله تعالى أنه ليس كذلك، وهذان رأيان لو كانا بين البشر لأحدثا نزاعاً كبيراً، إذ لكل واحد وجهة نظر قوية، لذلك حسم الله تعالى الأمر قائلاً: ﴿فلا تسألن

٣٢ ـ هود ـ الآية ٤٠

٣٣ ـ هود ـ ٤٥ ـ ٤٦

ما ليس لك به علم، إني أعظك أن تكون من الجاهلين..﴾.

فهذه القوة في الحسم رجحت معنى على معنى، وألغت المعنى الأول، وجعلت المعتمد هو الثاني.. «إنه ليس من أهلك» وأذعن نوح عليه السلام.

إن اللحظات الحاسمة الخطيرة تحتاج إلى تبن حاسم لأمر من أمور عدة قد تختلف حولها الأفهام، هنا يختلف واقع الحكم عن واقع غيابه، ففي وجود الحاكم المسلم يتم ترجيح فهم معين لمسمى قد يكون فيه ألف فهم ورأي، أما في انعدام مصدر الكلمة الصارمة التي تحسم الخلاف وتضع نهاية للنقاش والآراء، فإن الأمر يصبح فوضى، وهو ما يجعل من العقل والعدل عند جماعة ما أن ترخي الشعرة لغيرها من الجماعات ليتوحد الجميع على رأي واحد.

إن تبني رأي واحد والالتفاف حوله والعمل في إطاره يكون في حال حسم الحاكم المسلم أو القائد العام أمراً إلزاما بسلطة الحكم أو القيادة، لذلك يجب إيجاد «عنصر جديد» في فكر الجماعات الإسلامية وجميع المسلمين هو: «الالتزام الطوعي» ولو عن طريق ا لتنازل فيما هو مشروع للتوحد حول رأي واحد فيه القوة، ولو أن الجماعات كانت خمسا، وكان هناك خمسة آراء، وتركت أربع من الجماعات آراءها إذا كانت مما يعد احتمالاً أو وجهاً من الوجوه أو اجتهاداً، فإن ذلك سيكون خيراً للمسلمين.. لكن المرارة تكمن في كون الجماعات الإسلامية تجمع إلى الحشف سوء الكيل، وتتذرع بغياب الحاكم الحاسم لتفريق الكلمة والشمل، وتعديد الآراء والمواقف، أفلا يستقيم للمسلمين وهم مسلمون رأي، إلا تحت سلطة الحاكم؟!! فأين سلطة الدين إذن؟!!

إن الحديث عن الوحدة المفقودة يجعلنا أمام متغيرات كبيرة في بنية

الإسقاط الديني الجامع بين النص الشرعي والواقع المعيش. والله تعالى يقول عن اليهود: «لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى» إن هذه الآية تخاطب واقعاً إسلامياً سِمَتُه الوحدة، ولذلك فالوحدة عند المسلمين بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يقابلها التفرق والتمزق والضعف في البنيان اليهودي.

والتفرق «تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى» قد أفرز عند اليهود واقعاً عسكرياً هشاً وهزيلاً يضعف فيه قتالهم للمسلمين.

وإذن، فهناك قاعدة عامة وهي أن التفرق يؤدي إلى الضعف، كما هو الأمر في هذه الآية في وصف واقع اليهود، وكما هو الأمر في قوله تعالى: «ولا تنازعوا فتفشلوا» وقوله: «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص..»

وهذه القاعدة ليست خاصة بجماعة دون أخرى، إنما الأمور بمسبباتها، فكلما تفرقت جماعة ضعفت، والجماعة المسلمة في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت متحدة، متكاملة، متراصة، لذلك انتصرت على اليهود كجماعة مهلهلة متفرقة، إن القوة والضعف مرتبطان بالوحدة والتفرق لا بالجماعات، لذلك فالجماعة المسلمة لن تكون قوية إذا تركت الوحدة، كما أن اليهود لن يكونوا ضعافاً إذا تركوا التفرق، غير أن المشكلة الفكرية الكبرى والتي هي أساس فظيع لمشكلة سياسية وحربية هي أن الجماعات الإسلامية، ورغم واقعها الضعيف المتأتي من تفرقها وتنابذها وتهارشها لازالت تعتقد أنها هي المقصودة بقوله تعالى: ﴿لا يقاتلوكم جميعاً إلا في قرى محصنة.... تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ رغم أن الواقع يقول غير ذلك، وهو أن الأضعف

والأكثر تشتتاً وتفرقاً هم المسلمون، بينما اليهود قد توحدوا على قضيتهم توحداً رهيباً، وكل جهودهم، سواء أكانوا في فلسطين أو في الغرب تصب في مصب واحد وهو «دولة إسرائيل الموعودة».

وحتى ولو كان الأمر صفة ملازمة وهي أنهم لا يقاتلون المسلمين إلا من وراء جدر، فإن ذلك في حال ما إذا كان المسلمون مقاتلين، كما في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما اليوم فقد انعدم القتال لليهود، وبالتالي فهم معفيون من المواجهة سواء من وراء جدر أو من أمامها.

إن الاستدلال بالنصوص في غير محلها، وعدم التفريق بين ما هو منها مرتبط بمسببات، وبالتالي فهو متغير بتغير المسببات، وما هو ثابت كصفة دائمة لا تتغير، هو الذي كان السبب في وجود فكر ديني تغلب عليه «الخيرية الخادعة» إذ أن الخيرية عند المسلمين مرتبطة بواقع عملي: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾، ولا خيرية بدون هذه الشروط، غير أن المسلمين ورغم تخليهم عن هذه الشروط والمقاييس ما زالوا إلى اليوم يتمسكون بالخيرية وكأنها وصف ثابت لن يزول عنهم بعد أن ألصق بهم.

لذلك فالمعركة غير المتكافئة عسكرياً مع اليهود، هي نتاج معركة أخرى غير متكافئة في مجال الفكر وأيضاً في الواقع العملي، والذين يريدون تحقيق قوة، بدون القضاء على التنازع وتحقيق الوحدة، واهمون، وتبقى الآية: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾.